

الفصل الرابع عشر

الامبراطورية المتغيرة

١٦٤٨ - ١٧١٥

١ - اعادة تنظيم ألمانيا

هبطت حرب الثلاثين بسكان ألمانيا من ٢٠.٠٠٠.٠٠٠ الى ١٣.٥٠٠.٠٠٠ . وبعد عام أفاقت القرية التي روتها دماء البشر ، ولكنها ظلت تنتظر مجيء الرجال . وكان هناك وفرة في النساء وندرة في الرجال . وعالج الأمراء الظافرون هذه الأزمة البيولوجية بالعودة الى تعدد الزوجات كما ورد في العهد القديم . ففي مؤتمر فرانكونيا المنعقد في فبراير ١٦٥٠ بمدينة نورمبرج اتخذوا القرار الآتى : -

« لا يقبل في الأديار الرجال دون الستين . . . وعلى القساوسة ومساعدتهم (اذا لم يكونوا قد رسموا) ، وكهنة المؤسسات الدينية ، أن يتزوجوا ويسمح لكل ذكر بأن يتزوج زوجتين ، ويذكر كل رجل تذكيرا جديا ، وينبه مرارا من منبر الكنيسة ، الى التصرف على هذا النحو في هذه المسألة (١) » .

وفرضت الضرائب على النساء غير المتزوجات (٢) . وسرعان ما اعادت المواليد الجديدة المساواة التقريبية بين الجنسين ، وأصرت الزوجات على ألا يقاسمن أحد في رجالهن . واستعاد السكان كثرتهم سريعا ، فما وافى عام ١٧٠٠ حتى ارتفع عددهم ثمانية الى عشرين مليونا من الأنفس . وبنيت مجدبورج من جديد ، وبعثت الاسواق الحياة والنشاط في ليبزج وفرانكفورت - أم - مين ، وخرجت همبورج وبريمن أقوى مما كانتا . على أن الصناعة والتجارة استغرقتا أكثر من مائة عام حتى تدركا مستواهما الذى كانتا عليه في القرن السادس عشر . فالسويديون والهولنديون يسيطرون على مصاب الأودر ، والألب ، والرین ، والنقل بالمحيط يحدث ركودا نسبيا في النقل البرى ،

بالتطبيقات الوسطى قد اضمحلت ، ولم يعد يحكم المدن رجال الأعمال بل أمراء الأقاليم أو من ينوبون عنهم .

وكانت الحرب قد انتهت بكارثة على سلطة هابسبورج الامبراطورية . ذلك أن فرنسا أذلتها ، وأذلت أسبانيا حليفة الامبراطورية . وغدا الأمراء الألمان في مجموعهم أقوى من الامبراطور فلهم جيوشهم ، وقصورهم ، وعملتهم ، وهم يفصلون في سياساتهم الخارجية ، ويؤلفون أحلافهم مع الدول غير الألمانية ، بل ضد المصالح الامبراطورية . وكان هناك نحو مائتى امارة « زمنية » تستمتع الآن بهذا الاستقلال ، وثلاثة وستون دويلة يحكمها رؤساء أساقفه أو أساقفة أو رؤساء ديورة يتبعون كنيسة روما الكاثوليكية ، واحدى وخمسون « مدينة حرة » ، لا تخضع لغير الامبراطور ، وخضوعها له لا يعدو أن يكون صوريا . واغتبطت فرنسا برؤية هذه الدويلات الألمانية الكثيرة بدلا من ألمانيا الموحدة .

وكانت براندنبورج ، اقليم الحدود الألماني ، رمزا على الامبراطورية المحتضرة ، وعلى ألمانيا جديدة تتخذ لها شكلا جديدا . فهناك ، وعلى منأى من الامبراطور ، وفي مواجهة السويد وأمام جيش من الصقالبة ، تعلمت أسرة هوهنزولرن أنه لابقاء لدويلتهم الا بمواردها وقوتها . ففي القرن العاشر كان هنرى الصياد قد أقام « الحد الشمالى للسكسون » على طول الالب حصنا ضد الطوفان السلافى . وانتزع من الوند الصقالبة قلعتهم وعاصمتهم برنيبور (التى اشتق منها اسم براندنبورج) وردهم الى الأودر . وظلت الاقاليم الواقعة بين الالب والأودر قرونا يتبادلها الألمان والصقالبة . ودخلت براندنبورج ساحة التاريخ دخولا أنشط حين اشتراها فردريك هوهنزولرن ، فى ١٤١١ - ١٦ ، هى وصوتها الانتخابى فى الديت الامبراطورى . ومن ذلك التاريخ حكم بيت هوهنزولرن براندنبورج حتى أصبحت بروسيا ، وحكم بروسيا حتى تنازل القيصر فلهم الثانى عن عرشه فى ١٩١٨ . وندر أن ارتبطت أسرة بدولة هذا الارتباط الطويل الوثيق ، أو كرسست نفسها لرفاهية أمة وتوسيع رقعتها بهذه الغيرة والفعالية . وعلى عهد الناخب جون سجموند (١٦٠٨ - ١٩) حصلت براندنبورج على دوقية كليف فى الغرب ودوقية بروسيا الشرقية فى الشرق ، بحيث غدا

اقليم الحدود بشيرا بمملكة بروسيا . وكان من أضعف أفراد الأسرة الناخب جورج وليم (١٦١٩ - ٤٠) ، الذى أدت تقلباته فى حرب الثلاثين الى تدمير براندنبورج على أيدي الجنود السويديين . فهجرت القرى والمدن ، وخربت برلين ، وكادت الصناعة تتلاشى ، وهبط سكان اقليم الحدود من ٦٠٠.٠٠٠ الى ٢١٠.٠٠٠ واستطاع فردريك وليم ، الذى ورث هذه التركة الخربة (١٦٤٠) ، أن ينجز خلال الثمانية والأربعين عاما التى حكم فيها ، معجزة من معجزات التعمير والتنمية ، حتى لقد اعترف له حتى معاصروه بلقب « الناخب الأكبر » . ولولاه لما كان فردريك الأكبر (كما سلم بهذا فردريك الأكبر نفسه) (٣) .

كان يبلغ العشرين حين ولى العرش - فتى وسيما ، أسود الشعر ، أسمر العينين ، يشق طريقه الى السلطة . كان قد نشيء على التقوى والنظام ، وأكمل تعليمه فى جامعة ليدن . وقد سبق بطرس قيصر الروس فى اعجابه بالهولنديين وبشجاعتهم الصامدة وجدهم واجتهادهم ، فاستقدم بعد ذلك ألوفاً منهم ليعمروا وطنه المتعطش للسكان . ثم حصل بمقتضى صلح وستفاليا على بومرانيا الشرقية (البعيدة) ، وأسقفيتى ميندن وهالبرشتات ، والحق فى وراثة راسة أسقفية مجدبورج الهامة ، وقد آلت اليه فى ١٦٨٠ ، واختتم فردريك وليم حكمه بملك مبعثر بدأ جهده ليصبح مملكة . وفى تاريخ مبكر - ١٦٥٤ - اقترح كبير وزرائه ، الكونت جيورج فردريك الفالدكى ، توحيد ألمانيا كلها تحت زعامة بيت هوهنزولرن (٤) . وبدا أن فردريك وليم هو الرجل الكفيل بتحقيق هذه الوحدة الحامية . فلما اعتنق أوغسطس القوى أمير سكسونيا الكاثوليكية ليصبح ملك بولندا فتح الطريق لألمانيا لتتولى الزعامة البروتستنتية - ولم تعترضه سوى قوة السويد .

ذلك أن معاهدات ١٦٤٨ كانت قد تركت نقطا استراتيجية هامة بألمانيا فى قبضة السويد ، وطالبت السويد بزعامة ألمانيا البروتستنتية استنادا الى تضحياتها وانتصاراتها فى حرب الثلاثين . فكيف تستطيع براندنبورج - بروسيا ، بمكوناتها التى تحدد بها الدول المنافسة من أقصى ألمانيا الى أقصاها ، أن تبلغ من القوة والمنعة حدا يتيح لها الدفاع عن نفسها ضد تسلط السويد ، أو تسلط سكسونيا ، الدولة الموحدة

المركزية السلطة ؟ وبدأ فردريك وليم بخطة واردة هما أول دعومات الحكم الكفاء ، ثم جمع بالضرائب والاعانات الفرنسية المال الذي هو ثانی دعومات الحكم الكفاء ، وبالمال نظم جيشا ، هو ثالث دعومات الحكم الكفاء ، فما حل عام ١٦٥٦ حتى كان له أول جيش دائم فى أوربا - عدته ثمانية عشر ألف مقاتل شاكى السلاح . وبهذه الوسيلة من وسائل الاقناع أقنع الولايات المكونة لدولته أن تدفع « اشتراكا » سنويا فى نفقات الحكومة المركزية ببرلين ، وبهذه الموارد أصبح مستقلا عن سلطان المال فى المجالس الاقليمية ، وحقق ما كان فى رأيه الشكل العملى الوحيد للحكومة فى المرحلة الراهنة من مراحل التطور السياسى والفكرى - وهو الحكم المطلق المركز . وأعفى النبلاء من الضرائب المباشرة ، ولكنه ألزم أبناءهم خدمته نبلاء صغارا « يونكر » فى وظائف الجيش والادارة العليا . وكره هؤلاء « الصغار » هذه الخدمة أول الأمر ولكنه خلع عليهم الثياب العسكرية الفاخرة والمركز الاجتماعى المرموق ، ودرّبهم على الكفاية وعزة النفس ، وربى فيهم « روح الفريق » التى حلت محل ولاءات النظام القديم الاقطاعية ، والتى جعلت الجيش خادما لا لملك الأراضى بل للحكومة . وهكذا بدأ الجهاز العسكرى والاجتماعى الذى مكن لفردريك الأكبر أن يثبت لنصف أوربا ، والذى أعد ألمانيا لخوض الحرب العالمية الأولى .

على أن فردريك وليم أعوزته صفة واحدة - هى عبقرية ملوك السويد الحربية . فقد ظل عشرين عاما ينقل قوته من جانب الأجانب فى صراعات السويد مع بولنده ، والامبراطورية مع فرنسا ، حافظا بالجهد كيانه بالدبلوماسية . ولكن حين غزا شارل الحادى عشر براندنبورج ، برر جيش فردريك وليم وجوده بهزيمته السويديين فى فيربيلين (١٦٧٥) ، وهذا النصر هو الذى أكسبه لقب الناخب الأكبر . وفى خاتمة المطاف ، ورغم سياساته المتقلبة وموارده الضيقة ، أضاف لدولته أربعين ألف ميل مربع من الأرض .

بيد أن اصلاحاته الاقتصادية والادارية كانت أهم - فبفضل حضه حسن الاشراف وسائلهم الزراعية وزادوا من غلة ضياعهم . وقد طور صناعة ناجحة للحريز بزرعه أشجار التوت على نطاق واسع . وقلب الاتجاه الى اقتلاع أشجار الغابات ، فاشتراط على الفلاحين أن يغرس

كل منهم اثنتى عشرة شجرة قبل أن يتزوج . وصمم ومول شق قناة فردريك وليم لتربط نهري الأودر وسبرى . ولما ألقى لويس الرابع عشر مرسوم نانت ، أصدر الناخب الأكبر « مرسوم بوتسدام » (نوفمبر ١٦٨٥) الذى دعا الهيجونوت المنكوبين للمجئء الى براندنبورج - بروسيا والاقامة فيها ، وبعث مندوبين ليوجهوا هجرتهم ويمولوها (٥) ، وجاء عشرون ألفا ، فكانوا مهمازا حفز الصناعة البروسية ، وألفوا خمسة أفواج فى الجيش البروسي . وكان فردريك وليم نفسه ، كما كان سليله فردريك الأكبر ، يكد ويكدح فى الإدارة بهمة لاتنى ، وقد أرسى ذلك المبدأ الذى قبله بعد ذلك القيصر بطرس و « المستبدون المستنيرون » من حكام القرن الثامن عشر ، ومؤداه أن على الملك أن يكون خادم الدولة المكرس . وقد أدرك أن التعصب الدينى معطل للتطور الاقتصادى والسياسى ، فتفرد فى ألمانيا بأن سمح لشعبه بالبقاء على المذهب اللوثرى فى حين ظل هو على مذهبه الكلفنى ، ومنح الحرية الدينية للكاثوليك ، والموحدين ، واليهود .

ومات عام ١٦٨٨ وقد بلغ الثامنة والستين . وكانت وصيته التى قسم فيها ولاياته العديدة بين أبنائه كفيلة بأن تمحو ما أحدثه حكمه من أثر موحد ، لولا أن خلفه رفض الوثيقة واحتفظ بالسلطة المركزية . واكتسب هذا الخلف - وهو فردريك الثالث - مودة الامبراطور ليوبولد الأول بالانضمام اليه ضد فرنسا ، ومن أجل هذا ، ومن أجل ثمانية آلاف مقاتل ، منحه ليوبولد لقب « ملك بروسيا » . وقد توج باسم فردريك الأول فى كونجزبرج فى ١٨ يناير ١٧٠١ ، وبدأت بروسيا مسيرتها نحو بسمارك والوحدة الألمانية .

ومن المفاخر التى ازدان بها سجل فردريك انشاؤه جامعة هالى ، ومفخرة أخرى تذكر له أنه عضد جهود زوجته الثانية فى النهوض بلطائف الثقافة والفكر فى برلين . وقد اشتهرت هذه الزوجة ، واسمها صوفيا شارلوت ، ابنة صوفيا ناخبة هانوفر ، بأنها أجمل النساء وأذكاهن فى ألمانيا . فجلبت الى بلاط برلين من مقامها الطويل فى باريس مزيجا جذابا من الثقافة والظرف . وبالحاحها والحاح ليينتز ، أنشأ فردريك أكاديمية برلين للعلوم ، التى قدر لها أن تصنع التاريخ فى عهد فردريك الثانى . وبنى الناخب لزوجته (١٦٩٦) القلعة أو القصر

(شلوس) الشهير فى الضاحية التى اتخذت اسمها ، شارلوتنبرج .
وتوافد على صالونها فى قصر شارلوتنبرج العلماء والفلاسفة وأحرار
الفكر واليسوعيون والقساوسة اللوثيريون ، وكانت شارلوت تحب أن
تحفزهم لخوض المعارك اللاهوتية التى كانت أحيانا تستغرق الليل
كله . هناك استوعبت زوجة أخيها ، كارولين ملكة إنجلترا ، العلم
والفن اللذين ستجفل لهما إنجلترا . فلما حضرت الوفاة شارلوت (اذا
صدقنا رواية حفيدها فردريك الأكبر) رفضت عروض القساوسة
الكاثوليك والبروتستنت على السواء بالصلاة من أجلها ، وقالت لهم انها
تموت فى سلام ، وانها تشعر بحب الاستطلاع أكثر من الرجاء أو
الخوف ، لأنها الآن ستشبع فضولها حول أصل الأشياء « الذى لم
يستطع حتى ليبنتنر أن يفسره لى قط » ، وعزت زوجها الشديد الولع
بالمراسم بقولها ان موتها « سيتيح له فرصة تشييعها بجنائز فخمة (٦) » .
لقد كانت صوفيا شارلوت واحدة من نساء كثيرات ذوات خلق وتعليم ،
جملن ألمانيا والقرن السابع عشر ينزلق الى الثامن عشر .

أما بلاط برلين ، وهو واحد من نيف وثلثمائة بلاط أفنت آنئذ
موارد الامبراطورية ، فلم يكن له من منافس سوى البلاط السكسونى .
وقد خلف أوغسطس القوى ، الذى حكم سكسونيا (١٦٩٤ - ٢٧٣٣)
باسم الناخب فردريك أوغسطس الأول ، لأوربا رهطا من الابناء غير
الشرعيين ، ومنهم المارشال دى ساكس الشهير . وجعل عاصمته « أجمل
مدينة فى ألمانيا (٧) » ومركز الفنون الصغيرة ومفخرتها ، ولكن
السكسون لم يستطيعوا أن يغفروا له ارتداده عن مذهبه ، واستعماله
أموالهم ورجالهم فى حروب بولنده ، وترف بلاطه الباهظ التكاليف .

وقد أسهمت امارة هانوفر الناخبة فى التاريخ فى هذه الحقبة
بايوائها ليبنتنر وضمها إنجلترا . وفى ١٦٥٨ ، تزوجت صوفيا أميرة
بالاتين المخلوعة ، وابنه اليزابيث ستيوارت (ملكه بوهيميا) ، من
ارنست أوغسطس ، الذى أصبح ناخب هانوفر . وقد أربك علمها الواسع
زوجها ، فقد كانت تتحدث خمس لغات بطلاقة تكاد تكون تامة ، وتعرف
من التاريخ الانجليزى أكثر مما يعرفه السفراء الانجليز فى بلاطها .
وظلت حينما تحتفظ فى هانوفر بصالون يؤمه العلماء والفلاسفة . ولكنها
كانت تتحرق شوقا للحصول على عرش إنجلترا لولدها جورج : كان

دمها يختلج بالملوكية ، لأنها لم تنس قط أنها حفيدة جيمس الأول .
وفى ١٧٠١ قرر البرلمان الانجليزي كما رأينا حق وراثة العرش لصوفيا
و « ورثتها من دمها شريطة أن يكونوا من البروتستنت » . وتأملت
فى سرور مشهد ولدها حين يصبح جورج الأول ، وفى كدر مشهد زوجته
صوفيا دوروتيا ملكة له ، وتطلعت فى هدوء الى فسخ زواجهما .
واشتبه جورج فى ان تكون زوجته خانتة مع الكونت فيليب فون
كونجزمارك ، فقتل بأمره ، وطلق صوفيا دوروتيا ، وسجنها من ١٦٩٤
الى أن ماتت فى ١٧٢٦ . وفى غضون هذا ماتت الناخبة الأرملة فى
يونيو ١٧١٤ وقد بلغت الرابعة والثمانين ، قبل أن يهبط تاج إنجلترا
على رأس ولدها بشهرين فقط . وكذلك يتصرف اله الحظ العظيم ، من
عرشه الكلى الوجود ، فى المصائر والدول والرجال .

٢ - الروح الألمانية

كان اصطراع الكاثوليكية والبروتستنتية على روح ألمانيا يخفف من
غلوائه ، لأن حرب الثلاثين جعلت من الأحقاد اللاهوتية « قياس
خلف » . وتحول الى كنيسة روما فى هذه الفترة بعض الأمراء
البروتستنت ، ومعظم الفضل فى هذا لأقناع اليسوعيين لهم . وتفوقت
الكلفنية على اللوثرية التى نزعت الى الدجماطية السكسولاستية
الجامدة . وانتقضا على هذه الشكلية قبل كل شيء ، انتشرت الحركة
« التقوية » التى حاولت أن تستبدل بالطقوس الخارجية روحا باطنية
من الوحدة مع الله . وفى النصف الثانى من القرن السابع عشر حمل
جورج فوكس ، ووليم بن ، وروبرت باركلي ، انجيل طائفة « الكويكر »
الى ألمانيا ، ولعل هذه الحركة التبشيرية شاركت فى تطوير التقوية
هناك ، ونلاحظ أن كتاب فيليب يعقوب سبينر *Pia desideria*
(١٦٧٥) صدر بعد زيارة بن الأولى بأربع سنوات . ذلك أن سبينر ،
بوصفه راعيا لكنيسة لوثرية فى فرانكفورت - أم - مين ، استكمل
خدماتها بعبادات صوفية تؤديها اجتماعات خاصة (هيئات تقوية) فى
منزله . وقد أطلق اسم التقوى *Pietist* ، كلفظ البيورتان
والمثودست ، على هؤلاء العابدين نقادهم على سبيل السخرية ،
فقبلوه ، وأصبح لهم شارة فخر متواضع . وتشبثوا فى حرارة بأمال

عصر السلام المرتقب (بعد مجيء المسيح) التي تعزت بها بعض الجماهير الألمانية خلال الحرب . ولم تكن فكرتهم عن المجيء الثانى للمسيح عقيدة لاهوتية غامضة ، بل الهاما حارا نشيطا فى حياتهم اليومية . ففى أى لحظة قد يظهر المسيح ثانية على الأرض ، وسيهدىء صراع الأديان وينهى حكم القوة والحرب ، وسيقيم « كنيسة روحية » خالصة ، بغير تنظيم ، ولا طقوس ، ولا كهنة ، تمارس فى فرح مسيحية القلب السمحة الكريمة .

وواصل أوجست فرانكى الحركة تحدوه غيرة الأنبياء . وتأثرت نساء كثيرات بمسيحيته العملية وتطوعن فى قضية التقوى الشخصية والبر العام . وبعد أن تأثرت الحركة بالبيورتانية الانجليزية والهدوئية الفرنسية ، أثرت بدورها فى المثودية الانجليزية والشعر الألمانى ، وأشعرت الناس بوجودها فى أمريكا ، حيث رحب بها كوتون ماذر برجاء فقال « ان العالم بدأ يشعر بدفع من النار الألهية التي تضطرم على هذا النحو فى قلب ألمانيا (٨) » . ولكن التقوية كالبيوريتانية آذت نفسها لأنها جعلت تقواها علنية ومحترفة ، وتردت أحيانا فى مهاوى الافتعال والرياء . فأغرقها فى القرن الثامن عشر الطوفان العقلانى الذى تدفق من فرنسا .

وكان لانتصارات ريشليو ، ومازاران ، ولويس الرابع عشر ، ولثراء البلاط الفرنسى وبهائه المتزايدين ، أثر لا يقاوم فى المجتمع الألمانى خلال القرن التالى لصلح وستفاليا . وطغت النزعة العالمية حينها على القومية . وسادت الأساليب الفرنسية قصور الملوك والأمراء فى اللغة والآدب والغرام والعادات والرقص والفن والفلسفة والخمر والشعور المستعارة . ولم يتكلم الارستقراطيون الألمان الا بالألمانية الامع الخدم فقط . وكتب المؤلفون الألمان بالفرنسية للطبقات العليا أو باللاتينية للعالم المثقف . واعترف ليبنتنر ، الذى كانت معظم كتابته بالفرنسية ، بأن « العادات الألمانية تحولت قليلا الى الأناقة والآدب » بالقدوة الفرنسية ، ولكنه حزن على حلول اللغة والعبارات الفرنسية محل الحديث الألمانى ، أو التسرب اليه (٩) .

ولم يعيش من كتب هذا العهد الألمانية سوى كتاب واحد اسمه « سمبليوس سمبليسيوس » (١٦٦٩) بقلم هانز فون جريملز هاوزن . وهو من حيث الشكل سيرة متشرد ذاتية ، ذات أحداث مترابطة ، ليلكيور فون فوشهايم ، وهو انسان ربع أحمق ، وربع فيلسوف ، ونصف وغد . أما من حيث الروح فهو هجاء فكه متشائم يهجو ألمانيا التي خلفتها ثلاثون عاما من الحرب بين الحياة والموت . ويبدأ ميلكيور هذا رببيا لفلاح يصف المؤلف حياته فى عبارات مهذبة فيقول :-

« كان سيدى يملك الغنم والماعز والخنازير بدلا من الاتباع والخدم والسياس ، وكانت كلها تتبعنى فى السباق حتى أسوقها الى البيت . أما مخزن ذخائره فعامر بالمحاريث ، والمعاول ، والبساط ، والفئوس ، والمجاريف ، ومذارى الروث والدريس ، التى كان يمارس استعمالها كل يوم ، لأن العزق والحفر هما تدريبه العسكرى . . . واستخراج السباح هو علم التحصينات عنده ، وامسك المحراث علم الاستراتيجية ، وتنظيف الاسطبل تسليته ومباراته الفروسيتان (١٠) .»

ولكن جماعة من الجند تسطو على هذا الفردوس الريفى ، وتعذب الأسرة لتكرهها على البوح بسر مؤن مخترنة لا وجود لها . ويهرب ميلكيور ويلتجئ الى ناسك عجوز يلقيه أول دروسه اللاهوتية . فاذا سئل عن اسمه أجاب « وغد أو رد مشانق » لأنه لم يسمع أحدا يدعوه الا بهذا الاسم ، أما اسم متبنيه ، جريا على القاعدة ذاتها ، فهو « صلوك ، وبلطجى ، وكلب مخمور » . ويقبض عليه الجند ، فيأخذونه الى قصر حاكم هاناو ، وهناك يدرب على أن يكون مهرجا ، ويطلق عليه اسم سمبليسيوس سمبليسيوس . ثم يختطف ، ويصبح لصا ، ويعثر على كنز مخبوء ، ويصبح جنتمانا ، ويغوى فتاة ، ويكره على زواجها ، ثم يهجرها ، ويعتنق الكاثوليكية ، ويزور قسبة الدنيا ، ويخسر ثروته ، ويعوضها بالشعوذة والتدجيل ، ثم يضمنيه طول التجوال ، فيعتكف ليحيا حياة ناسك كشف حقيقة الدنيا وخداعها . هذه « كانديد » أولى سابقة على قصة فولتير بقرن ، والفرق أن هجاءها تلتطف منه الفكاهة الألمانية ، ولا يجمله الذكاء الفرنسى . وندد النقاد بالكتاب ، وأصبح من عيون الأدب ، وأشهر ثمار الأدب الألمانى بين لوثر وليمنج .

على أننا يجب ألا نتقبله صورة منصفة لألمانيا فى الجيل التالى للحرب . فربما كان الألمانى شديد الولع بالشراب ، ولكنه احتفظ بروح فكاهته الفوار حتى فى كئوس شرابه ، وربما وصفته زوجته بالكلب المخمور ، ولكنها أحبته لأنها لم تجد خيرا منه ، وربت أبناءه تربية قوية متينة . وربما كان فى ألمانيا ذلك العصر من الخلق السليم أكثر مما كان فى فرنسا . وآية ذلك أن شارلوت اليزابيث المسكينة ، أميرة بالاتين (١٦٧١) التى تزوجت على غير رغبتها بـ « المسيو » فليب أورليان أرمل « مدام » هنرييتا المنحرف جنسيا ، لم تسل قط جمال هيدلبرج الهادىء ، وبعد أن عاشت ثلاثة وأربعين عاما عيشا غير مريح مع ترف البلاط الفرنسى ، لم تفتأ تتوق الى « صحن طيب من الكرنب والسجق المدخن » مؤثرة اياه كثيرا على ما تقدمه باريس أو فرساي من قهوة أو شاي أو كاكاو (١١) . ويدلنا وفاؤها الرواقى لزوجها الحقيق ، وصبرها على الملك أخى زوجها الذى أمر أو أذن بتدمير بلاتينات، على أنه - حتى وسط خرائب ألمانيا - وجدت نساء استطعن أن يعلمن اللياقة والانسانية للملوك المعطرين ، الموشحين ، المطرزين ، اللابسين البواريك .

٣ - الفنون فى ألمانيا

ثم ان هذا العصر كان من أكثر العصور انتاجا فى العمارة الألمانية ، على عكس كل التوقعات المعقولة ، فقد شهد أول تفتح للباروك الألمانى، الذى خلق واجهة جديدة من الفتنـة والبهجة على كارلسروهي ، ومانهايم ، ودرسدن ، وبايزويت ، وفرتسبورج ، وفيينا . وكان زمان البنائين أمثال يوهان فيشر فون ايرلاخ ، ويعقوب برانتاور ، ويوهان وكيليان وكريستوف دينتسنهوفر ، وأندرياس شلوتر ، الذين كانت أسماؤهم خليقة بأن تشتهر بين الشعوب الناطقة بالانجليزية اشتهار رين واينيغو جونز ، لولا سجن الحدود وبليلة الألسن . على أن ما خلفوه دمر بعضه فى غزوات الجيوش الفرنسية لألمانيا (١٦٨٩) ، وبعضه فى الحرب العالمية الثانية (١٢) . ان التاريخ سباق بين الفن والحرب .

وارتفعت كنائس جميلة وسط الفقر والخراب . ويشين سجلنا هذا ألا نشير فيه اشارة ولو عابرة لكتدرائية يوهان دينتسنهوفر فى فولدا أو

كنيسة ديريه فى بانترز ، أو لأشغال كريستوف وكيليان دينتسنهوفر فى كنيسة القديسين نيقولا ويوحنا فى براغ . وفى ١٦٦٣ بدأ المعماري الايطالى أجوستينو باريللى قصر نيمفينبورج خارج ميونيخ ، وأكمل يوسف افنر داخله فى مزيج موفق من العمد الكلاسيكية والزخرف الباروكى . لقد كانت الزينة هى الاغراء المتسلط على الباروك ، واستعملت باسراف فى الفستزال أو صالة الاحتفالات فى شلوس برلين ، وفى جناح قصر زفينجر الذى بناه فى درسدن متاوس دانيال بوبلمان لاوغسطس القوى ، هنا تحول الباروك الى روكوك جميل أنسب لداخل مدخدع منه لواجهة قصر . وقد تهدم معظمه فى الحرب العالمية الثانية ، وكذلك شلوس شارلوتنبورج وشلوس برلين ، وهو القصر الملكى الذى بدأه أندرياس شلوتر فى ١٦٩٨ .

أما أبرز المثاليين الألمان فى هذا العصر فهو شلوتر . فقد انتشت ألمانيا كلها بتمثال الفارس الراكب الذى صنعه للناخب الأكبر Der Grosse Kurfurst والذى لم تنل منه كل قنابل الحرب ، والذى يرتفع الآن فى ميدان شارلوتنبورج خارج برلين . وفى كونجزبرج أقام شلوتر تمثالا لفردريك الأول عقب تتويجه ملكا لبروسيا ، لا يقل روعة عن التمثال المذكور . ونحت يوليوس جليسكر رأسا للعذراء مريم ، حزينه فى صمت ، لمجموعة تماثيل للمسيح المصلوب فى كتدراييه بامبرج . وأظهر نقاشو الخشب مهارتهم فى مقاعد المرتلين الرائعة فى كلوستركيرشي بسيليسيا ، ولكنهم غالوا فى الأثاث المنقوش نقشا مسرفا والذى أمر بصنعه سادة فيهم من التفاخر أكثر مما فيهم من الذوق السليم .

ولم ينجب التصوير الألمانى روائع فى هذه الفترة ، الا اذا حسبنا من الروائع صورة ساحرة بريشة كريستوف باراديزو تسمى « شاب ذو قبعة رمادية (١٣) » . وقطع النسيج المرسوم التى صممها رودلف بيس لقصر فورتسبورج من أبداع القطع . واشتهرت بلدة فارمبرون - يئابيع سيليسيا الحارة - بزجاجها المصقول ، وروجت درسدن استعمال « صينى درسدن » . وكان أوغسطس القوى كذلك « ملك القاشانى » ، وحين عشر على أنواع مناسبة من الطفل قرب مايسين ، أقام بها

(١٧٠٩) القمائن التى انتجت أول خزف (برسلان) صلب فى أوروبا .

على أن الموسيقى هى التى وجدت فيها الروح الألمانية أبرز تعبير لها ، وكان هذا العهد بمثابة العشية التى بزغ بعدها صباح يوهان سبستيان باخ . أما الأشكال والآلات فجاءت من إيطاليا ، ولكن الألمان سكبوا فيها عاطفتهم الرقيقة وتقواهم الضخمة . فبينما تفوقت إيطاليا فى اتساق الأصوات ، وفرنسا فى الإيقاع الرشيق ، تقدمت ألمانيا الى مكان الصدارة فى الليدة (الأغنية الألمانية) ، وموسيقى الأرغن ، والكورال . وفى الحان ج . ف . كريجر المسماة « ١٢ سوناتا بكمانين » (١٦٨٨) نجد متتالية السوناتا قد أرسيت فعلا فى ثلاث حركات - اللاليجرو (الأعجل) ، واللارجو (البطيء جدا) ، والبريستو (السريع) . وكانت موسيقى الآلات ، المتطورة من رقصات (كالباغان ، والسربنده ، والجافوت ، والجيج الخ) تعلن استقلالها عن الرقص والصوت جميعا .

وكان الطلب على الموسيقيين الإيطاليين لايزال كبيرا فى ألمانيا . فملك كافاللى على ميونيخ ، كما ملك من بعده فيفالدى على دارمشتات . واستوردت الأوبرا الإيطالية ، وعرضت أول عرض لها فى ألمانيا بتورجاو (١٦٢٧) ، وتلت ذلك عروض أخرى فى ريجنسبورج ، وفيينا ، وميونيخ . وكانت أول أوبرا ألمانية (Singpiel) هى « آدم وحواء » من تلحين يوهان تايلى ، وقد أخرجت بهامبورج فى ١٦٧٨ ، ومنذ ذلك التاريخ ظلت هامبورج تتزعم الأوبرا والدراما الألمانية طوال نصف قرن . هناك أنتج هندل « الميرا » و « نيرون » فى ١٧٠٥ ، و « دافنى » و « فلورندا » فى ١٧٠٦ ، قبل أن يذهب لغزو إنجلترا . والاسم الكبير فى الأوبرا الألمانية فى ذلك العهد هو راينهارد كايزر ، الذى أنتج ١١٦ أوبرا لفرقة هامبورج .

وبعد ١٦٤٤ انتزع المؤلفون الألمان مكان الصدارة من الإيطاليين فى التأليف للأرغن والكنيسة . وعبرت ترانيم بأول جزهارت عن عقيدته اللوثرية العنيدة . وسيطر يان راينكن على الأرغن فى كنيسة « كاترينكرشي » بهامبورج من ١٦٦٣ حتى وفاته عام ١٧٢٢ فى

الحادية والتسعين . وأصبح ديتريش بوكستيهودى ، المولود بالدنمرك ، عازف الأرنغن فى كنيسة مارينكرشي بلوبيك فى ١٦٦٨ ، واشتهرت حفلاته هناك ، لا سيما حفلات « موسيقى المساء » التى جمعت بين الأرنغن والأوركسترا والخورس ، وذاع صيتها حتى أن باخ الكبير كان يمشى خمسين ميلا من أرنشبات الى لوبيك ليسمعه وهو يعزف (١٤) . وقد عاش نحو سبعين من الألحان التى وضعها للأرنغن ، وكثير منها مازال يعزف ، وقد أسهمت الحانه الكورالية فى تكوين أسلوب يوهان سبستيان . وسبق يوهان كوناو باخ عازفا على الأرنغن فى كنيسة توماسكرشي بليبزج ، وقد طور السوناتا للكلافير ، ولحن ألحانا (Partien) من نوع متتاليات باخ .

وأخذت أسرة باخ تدخل الآن عالم الموسيقى فى خصوبة مذهلة . وقد وصل الى علمنا أسماء نحو أربعمئة من آل باخ بين ١٥٥٠ و ١٨٥٠ : كلهم موسيقيون ، وستون منهم يشغلون مراكز هامة فى دنيا الموسيقى فى زمانهم . وقد ألفوا نوعا من النقابة العائلية التى تجتمع دوريا فى مقارهم بأيزيناخ ، أو أرنشبات ، أو ارفورت . وهم يؤلفون بلا جدال أكبر وأشهر أسرة فى التاريخ الثقافى ، ويثيرون الاعجاب لا لكثرة عددهم فحسب ، بل لأخلاصهم لفنهم ، ولثبات فى الهدف جرمانى صيل ، ولغزارة انتاجهم وقوة تأثيرهم . ولم تبرز أسماؤهم فى الحوليات الموسيقية الا فى جيلهم الخامس ، بظهور يوهان كرسstof ويوهان ميكائيل باخ ، ابنى هينريش باخ ، عازف الأرنغن فى أرنشبات . وكان يوهان كرسstof كبير عازفى الأرنغن فى ايزناخ طوال ثمان وثلاثين سنة ، رجلا بسيطا ، جادا ، مدققا فى عمله ، درب فرق الترتيل ولحن للأرنغن وللأوركسترا . وأصبح أخوه يوهان ميكائيل عازف الأرنغن فى جيرين فى ١٦٧٣ ، وظل هناك حتى مات فى ١٦٩٤ ، وأعطى خامس بناته زوجة أولى ليوهان سبستيان . وكان لكريستوف باخ أخى هيزيش ، وعازف الأرنغن فى فيمار ، ابنان كانا عازفى كمان ، وأحدهما وهو أمبروزيوس كان أبا يوهان سبستيان . أما يوهان باخ ، أخو هينريش وكرسstof ، فكان عازف الأرنغن فى ايرفورت من ١٦٤٧ الى ١٦٧٣ ، حين خلفه ابنه يوهان كرستيان باخ ، الذى خلفه فى ١٦٨٢ أخوه يوهان اجيديوس باخ . وكان قوى الطبيعة كلها وجهت لتنجب وتعد يوهان سبستيان باخ .

٤ - النمسا والأتراك العثمانيون

ان فى فيينا اليوم من الجمال ما يصعب معه علينا أن نتصور حاله عقب حرب الثلاثين ، صحيح أن النمسا لم تقاس ما قاسته ألمانيا من ويلاتها ، ولكن خزانتها نضبت ، وجيوشها تهللت ، وهبط صالح وستفالي بسمعة الأباطرة وقوتهم . على أن ظرفا واحدا كان فى صفها . ذلك أن ليوبولد الأول خلف أباه فرديناند الثالث على العرش الامبراطورى فى ١٦٥٨ وظل متربعا عليه طوال سبعة وأربعين عاما ، ومع أن هذا الحكم الطويل سمع العثمانيين يقرعون أبواب فيينا مرة أخرى ، فان النمسا أخذت تفيق من كبوتها سريعا . وكان ليوبولد ملكا على الإمارات الألمانية أسما لا فعلا ، ولكنه كان الملك الفعلى لبوهيميا وغربى المجر ، وكان يحكم دوقيات استيريا ، وكارنثيا ، وكارنيولا ، وكونتية التيرول . ولم يكن بالحاكم العظيم ، كان يكذب ويكده بشعور الواجب فى الادارة وتشكيل السياسة ، ولكنه افتقر الى الرؤية البعيدة التى أوتيتها أسلافه من آل هابسبورج ، فلم يرث منهم غير لاهوتهم وشكل ذقونهم . وكان قد درب أصلا للكهانة ، ولم يفقد قط حبه لليسوعيين ، أو ينحرف كثيرا عن ارشادهم . ومع أن أخلاقه الشخصية كانت نقية لا عيب فيها ، فانه قبل المبدأ الذى يحتم جعل جميع رعاياه كاثوليكيا ، ونفذ سياسته بأوتقراطية صارمة فى بوهيميا والمجر . وكان ميالا الى السلم ، ولكنه أكره أو سيق الى سلسلة من الحروب بسبب اعتداءات لويس الرابع عشر والعثمانيين . وقد وجد فيما بين عمليات اراقة الدماء هذه وقتا للشعر والفن والموسيقى ، ألف الموسيقى بنفسه ، وشجع الأوبرا فى فيينا ، فعرضت بها أربعمائة أوبرا جديدة فى السنين الخمسين التالية لاعتلائه العرش . ویدلنا نقش يرجع الى عام ١٦٦٧ على أن المدينة كانت تملك دار أوبرا فخمة ، ذات ثلاثة صفوف من الألواح ، وكل مقعد فيها مشغول . وهكذا نرى أن هذه الدعامة المبهجة للغناء قديمة جدا .

وعلىنا أن ننظر الى النمسا فى هذا العصر على أنها المدافع عن الغرب ضد تركيا المنبعثة من جديد ، المعذبة بعدء أشد حكام الغرب بأسا ، فقد عاق صراع العالم المسيحى مع العالم الإسلامى وشوشه ذلك النزاع القديم بين الهابسبورج وفرنسا . وزادت المجر المشكلة تعقيدا ، لأن ثلثها

الغربي فقط هو الذي خضع لحكم الامبراطور ، وكان جزء منه بروتستانتيا يتوق الى التحرر . وكان للمجريين مشاعرهم القومية الخاصة بهم ، والتي يغذوها ادبهم وما توارثوه من تقاليد يعتزون بها عن هونيادي يانوس وماتياس كورفينوس ، وكان ميكلوس زريني قد نشر قبيل هذه الفترة (١٦٥١) ملحمة تفيض بحب الوطن . وكان المجريون الذين أهانهم وظلمهم الحكم النمساوي والتسلط الكاثوليكي تحدثهم نفوسهم بالترحيب بالعثمانيين حين قرر هؤلاء محاولة فتح المجر كلها .

وقد أوقفت سلسلة من الوزراء العثمانيين الأقوياء اضمحلال تركيا ، وعاودوا ارهاب الغرب . ومن علامات الانتعاش أن شاعرا تركيا فحلا اسمه « نبي » راح يتغنى بمدح الوزراء الذين أغدقوا عليه المال ، وعلامة أخرى أن المال والذوق والورع التركي - كلها تضافرت لتشيد جامع بيني - وليدي البديع في اسطنبول (١٦٥١ - ٨٠) . وعين السلطان محمد الرابع محمد كوبريلي صدرا أعظم (١٦٥٦) ، استهل وهو في السبعين من عمره نصف قرن من الحكم تربعت فيه أسرته الألبانية على دست الوزارة ، ولم يدم استيزاره أكثر من خمس سنوات ، ولكن في هذه الوزارة الخماسية أعدم بأمره ٣٦٠٠٠ شخص لجرائم تتفاوت من السرقة الى خيانة الدولة ، وكان كبير جلاديه يشنق ثلاثة كل يوم في المتوسط . وأكره الخوف من العقاب المفسدين في الادارة ودساسة السياسة في الحریم على الاعتدال ، وأعيد النظام الى الجيش ، وخفف باشوات الولايات من استقلالهم واختلاساتهم . فلما تمرد جورج راکوكزي الثاني ، أمير ترانسلفانيا ، على السيادة العثمانية ، اكتسح كوبريلي حركة التمرد بجيش يقوده بنفسه ، وخلع راکوكزي ، وفرض على البلاد تعويضا باهظا ، وزاد الجزية التي تدفعها ترانسلفانيا للسلطان سنويا من خمسة عشر ألف فلورين الى خمسين ألفا .

وخلف هذا السبعيني الرهيب في الوزارة ابنه أحمد كوبريلي . فلما نشبت ثورة أخرى في ترانسلفانيا بقيادة يوحنا كيميبي ، عززها ليوبولد بعشرة آلاف مقاتل يقودهم قائد فذ من قواد ذلك العصر هو الكونت الايطالي ريمونديو مونتيكوكولي . ورد أحمد بالزحف بجيش عدته ١٢٠٠٠٠ مقاتل تحت قيادته حاول به استكمال فتح المجر . وطلب ليوبولد المعونة ، واستجابت الولايات الألمانية ، البروتستانتية

والكاثوليكية على السواء ، بالمال والرجال ، وأسهم لويس الرابع عشر بأربعة آلاف جندي بعد أن تخلى عن تحالفه مع العثمانيين . ولكن المقاومة بدت أمرا ميئوسا منه حتى بعد هذا كله ، وتوقعت أوروبا سقوط فيينا ، واستعد ليوبولد للرحيل عن عاصمته . وكانت قوات مونتيكوكولى أقل كثيرا من قوات العدو ولكنها أفضل تزودا بالمدافع . ولم يجرؤ على لقاء الترك فى أرض مكشوفة تعطى ميزة للكثرة العددية ، فساورهم ليحاولوا عبور نهر رابا عند زنتجوتهارد ، على نحو ثمانين ميلا جنوبى فيينا ، وهاجم كل كتيبة تركية بمجرد وصولها الى ضفة النهر اليسرى . وكتب النصر لاستراتيجيته ، وللبطولة الفذة التى قاتل بها أفراد الفرقة الفرنسية (أول أغسطس ١٦٦٤) ، فى معركة أنقذت أوروبا مرة أخرى من أن يغرقها طوفان المسلمين .

ولكن ، كما ترك انتصار ليبانتو قبل قرن من الزمان (١٥٧١) العثمانيين محتفظين بقوتهم مفيقين بسرعة من كبوتهم ، فكذلك اضطر الامبراطور ، بسبب قدرتهم على تعويض خسائرهم ، وجيشهم الذى مازال محتفظا بضخامته ، وعدم ثقة ليوبولد بحلفائه التواقين الى العودة لأوطانهم - اضطر الى أن يبرم مع السلطان هدنة تمتد عشرين عاما (١٠ أغسطس ١٦٦٤) ، ترك بمقتضاها معظم المجر تحت حكم الترك ، وواعترف فيها ليوبولد بالسيادة التركية على ترانسلقانيا ، ودفع للسلطان « هدية » بلغت ٢٠٠.٠٠٠ فلورين . أما أحمد كوبريلى ، الذى خسر المعركة وكسب الحرب ، فقد عاد الى القسطنطينية مكلا بالغار .

وأنهى هجوم لويس الرابع عشر على الأراضي المنخفضة (١٦٦٧) مؤقتا اتحاد العالم المسيحى ضد الترك . وفى ١٦٦٩ تولى أحمد قيادة الحصار الطويل لكريت ، وأكره البنادقة على تسليم الجزيرة ، وسيطر الاسطول التركى مرة أخرى على البحر المتوسط . ولم يشجع حاكم غير يوحنا سوبيسكى ، ملك بولنده ، بأن لديه من الرغبة القوية ما يغريه بقهر تركيا . وقد أعلن عن هدفه فى شجاعة فقال ان « مقارعة الهمجى غزوا بغزو ، ومطاردته من نصر الى نصر ، على ذلك الحد بنفسه الذى لفظه من أوروبا . . . والقذف به الى موطنه فى الصحارى ، بوابادته ، واقامة امبراطورية بيزنطية على انقاضه ، هذه المغامرة

وجدها هي الجديرة بأن تسمى مسيحية ، انها دون غيرها السامية
الحكيمة (١٥) « . ولكن ليوبولد شجع الترك على مهاجمة بولنـد ،
ولويس حرضهم على مهاجمة ليوبولد (١٦) .

ومات أحمد كوبريلي في ١٦٧٦ وقد أنهك قواه وهو بعد في الحادية
والأربعين الكثير من الهزائم الرائعة ، بعد أن خسر « معارك فاصلة »
ومد الأملاك التركية الى أوسع مداها الأوربي . وخلع السلطان محمد
الرابع منصب الوزارة على صهره قره مصطفى ، الذي أبهج لويس
الرابع عشر بوعده بتجديد الحرب على النمسا (١٧) . وشجع قره نشوب
ثورة (١٦٧٨) قام بها الوطنيون المجريون بزعامة امري توكولى ،
الذي ساءه قمع النمسا العنيف للروح القومية وللبروتستنتية في المجر
النمساوية ، حتى حمله هذا على عرض الاعتراف بالسيادة التركية على
جميع أرجاء المجر اذا دعم الأتراك ثورته . أما ليوبولد فقد ألقح بعد
فوات الوقت ، عن سياسة القمع وأعلن التسامح الديني في المجر . وأرسل
لويس الرابع عشر المدد المالي الى توكولى (١٨) ، ووعد سوبيسكى
بالاستيلاء على سيليسيا والمجر اذا ربط بين بولنـد وفرنسا في حلف ضد
الامبراطور . أما ليوبولد فلم يكن في وسعه أن يعد سوبيسكى بأكثر من
أرشيذوقة عروسا لابنه ، ويتعهد بتأييد جهود سوبيسكى لجعل العرش
البولندي وراثيا في فرعه من الأسرة المالكة . ولسنا نعرف على التحقيق
دوافع الملك الى المبادرة بمساعدة النمسا على العثمانيين ، وكل
ما نستطيعه أن نقول انها كانت من أعجب وأخطر الأحداث في التاريخ
الحديث .

وأحسن قره مصطفى أن الخصومات بين الهابسبورج والبوربون ،
وبين الكاثوليكية والبروتستنتية ، تتيح له فرصة الاستيلاء على فيينا ،
وربما على أوربا بأسرها . وكان الترك يفاخرون بأنهم حولوا القسطنطينية
عاصمة الدولة الرومانية الشرقية قلعة اسلامية في القرن الخامس عشر ،
وحولوا كنيسة القديسة صوفيا جامعا ، فكذلك أعلنوا الآن أنهم لن يقفوا
حتى يفتجوا روما ويربطوا خيلهم في صحن كنيسة القيس
بطرس (١٩) . وفي ١٦٨٢ حشد قره مصطفى في أدرنة قواته ومؤننه
التي أتته من الجزيرة العربية والشام والقوقاز وآسيا الصغرى وتركيه
أوربا ، وتظاهر أنه يخطط للهجوم على بولنـد . وفي ٣١ مارس ١٦٨٣

بدأ السلطان والصدر الأعظم زحفهما الطويل على فيينا . وكان الجيش كلما تقدم يضم اليه الامداد من كل ولاية تركية فى طريقه ، فانضمت اليه فرق من الأفلاق ، وملدافيا ، وترانسلفانيا ، حتى اذا بلغ أوسبيك (اسزيك) على الدرافا كان يعد ٢٥٠.٠٠٠ مقاتل ، ويحوى بين صفوفه الابل والفيلة والمؤذنين والأغوات والحريم (٢٠) . هناك اذاع توكولى اعلانا دعا فيه المسيحيين المحيطين بالمنطقة الى دعم الهجوم على النمسا ، وأمنهم على حياتهم وأملاكهم ، ووعدهم بحرية العبادة فى حمى السلطان . ففتح الكثير من المدن أبوابه للغزاة .

وعاد ليوبولد يستغيث بالامارات الألمانية ولكنها تباطأت . ووضع جنوده البالغ عددهم ٤٠.٠٠٠ تحت امره شارل الخامس دوق اللورين ، الذى وصفه فولتير بأنه أنبل أمير فى العالم المسيحى (٢١) . وترك شارل حامية من ١٣.٠٠٠ رجل فى فيينا ، ثم تقهقر الى تولن ، حيث انتظر وصول البولنديين . وفر ليوبولد الى باساو ، ولامه شعبه لأنه لم يعد عاصمة ملكه للحصار المرتقب منذ زمن طويل . فلقد كانت حصونها مهدمة ، وحاميتها لا تبلغ عشر العدد الزاحف . وفى ١٤ يوليو ظهر الأتراك أمام المدينة . وبعث ليوبولد الى سوبيسكى يرجوه أن يأتى فورا قبل أن تصل مشاته البطيئة الحركة قائلا « ان اسمك بوحده ، الذى يرهبه العدو كثيرا ، كفيل بالنصر (٢٢) » . وأقبل سوبيسكى بثلاثة آلاف فارس . وفى ٥ سبتمبر وصلت مشاته وعدتهم ٢٣.٠٠٠ مقاتل . وبعد يومين وصل ١٨.٠٠٠ مقاتل من الولايات الألمانية ، فأصبح عدد جيش المسيحيين الآن ٦٠.٠٠٠ . ولكن فيينا كانت آنذاك تتضور جوعا ، وقلاعها تتهاوى تحت نيران المدفعية التركية ، فما هو الا أسبوع آخر من الحصار حتى تسقط المدينة .

وفى صباح ١٢ سبتمبر الباكر ، هاجم المسيحيون - الذين كانوا الآن تحت قيادة سوبيسكى العليا - الأتراك المحاصرين . ولم يكن قره مصطفى يصدق أن البولنديين آتون ، ولا أن القوات المسيحية ستهجم أولا ، فلقد رتب كل شيء للحصار لا للمعركة ، وزين ضباطه خنادقهم بقطع النسيج المرسوم والقرميد ، أما هو فزود خيمته بالحمامات ، والنافورات ، والحدائق ، والمحظيات . وأخذ خيرة جنده على غرة فى خنادقهم ، فمزقوا اربا اربا . وشاعت الفوضى فى جيشه

المخطط الذى جمعه من ولايات لا يثير حماسها ولاء للسلطان البعيد ،
أمام المسيحيين الذين ألهمهم الشعور بانهم ينقذون أوروبا والمسيحية .
وبعد ثمانى ساعات قطع الظلام القتال . فلما بزغ الفجر الجديد وجد
المسيحيون الذين مازالوا غير واثقين من النصر - لشدة فرحهم - أن
الأتراك قد لاذوا بالفرار مخلفين وراءهم ١٠ر٠٠٠ قتيل ومعظم
معدات الجيش فى المعسكر . أما المسيحيون فقدوا ٣ر٠٠٠ رجل .

وأراد سويسكى أن يطادر الترك ، ولكن الجنود البولنديين
رجوه أن يسمح لهم بالعودة الى وطنهم بعد أن أدوا مهمتهم . ودخل
الملك الظافر فيينا وكتدراييتها ليقدم الشكر لله ، وفى طريقه هتف له
الشعب العارف بصنيعه منقذا من السماء ، وناضل أفرادهم ليلمسوا ثوبه
ويقبلوا قدميه (٢٣) ، وأحسوا أنه ما من شيء فى سجل الفروسية
يفوق مآثرته تلك . فلما عاد ليوبولد الى عاصمته (١٥ سبتمبر) لم
يلق غير استقبال فاتر من أهلها . وسأل معاونيه هل حدث أن أستقبل
امبراطور مجرد ملك منتخب ، وما المراسم التى يجب اتباعها فى هذه
الحالة . وتباطأ فى لقاء سويسكى ، وأخيرا حياه شاكرا له صنيعه
شكرا متواضعا ، وقد توجس من أن يكون الدافع للبطل فى رغبته فى
مطاردة الترك خطة لاقتطاع مزيد من الملك لنفسه ولأسرته (٢٤) . فلم
تبدأ المطاردة الا فى ١٧ سبتمبر ، ولم يلتحم الجيش بالترك المتقهقرين
الا بعد ذلك بعشرة أيام . وعند باركانى ، قرب الدانوب ، أحرز
سويسكى وشارل انتصارا حاسما آخر . ثم قاد الملك جيشه عودا الى
بولنده بعد أن أنهكه السير والقتال والدوزنتاريا ، فدخل كركاو فى
ليلة ميلاد ١٦٨٣ . وفى اليوم التالى أعدم السلطان قره مصطفى .

وألفت النمسا وبولنده والبندقية ، بالحاج البابا انوسنت الحادى
عشر ، عصبة مقدسة لمواصلة الحرب ضد الترك (١٦٨٤) . وفتح
فرانشسكو موروزينى المورة (البلوبونيز) للبندقية ، وفى ١٦٨٦ حاصر
أثينا واستولى عليها فى ٢٨ سبتمبر ، وأثناء هذا الحصار دمرت
مدفعيته البروبيلايا والبارتينيون ، اللذين استعملهما الأتراك مخزنا
لبارودهم . وقد استعاد الترك أثينا وأتيكا فى ١٦٨٨ ، والمورة فى
١٧١٥ . وفى غضون هذا هزم شارل اللورينى الترك فى جران
(أترجوم) فى ١٦٨٥ ، وفى السنة نفسها ، وبعد عشر أيام من

الحصار ، استولى على بودا - عاصمة المجر القديمة - التي كانت فى قبضة الأتراك منذ ١٥٤١ . وفى ١٦٨٧ قاد شارل القوات النمساوية الى النصر فى هاركانى ، قرب موهاكس ، حيث استهل انتصار سليمان القانونى عام ١٥٢٦ عصر التفوق العثمانى . وأنهت معركة « موهاكس الثانية » هذه سلطة الأتراك فى المجر ، التي أصبحت الآن ملكا للملكية النمساوية . واعترفت ترانسلفانيا بسيادة الامبراطور الهابسبورجى ، وأدمجت (١٦٩٠) فى الامبراطورية النمساوية - المجرية . وفى ١٦٨٨ استولى ماكس ايمانويل البافارى على بلغراد . وأعلن ليوبولد أن الطريق أصبح الآن مفتوحا الى القسطنطينية ، وأنه قد آن الأوان وواتت الفرصة لطرد الأتراك من أوربا .

ولكن لويس الرابع عشر خف لنجدتهم . ذلك أن حرب البوربون مع الهابسبورج كانت فى نظر ذلك « الملك المسيحى جدا » أهم من الصراع بين المسيحية والاسلام . وكان يرقب فى غيرة متزايدة انتصارات العصبة المقدسة واتساع ملك الهابسبورج وعلو مكانتهم . وفى ١٦٨٨ ، سانتائف حربه مع الامبراطور ، ضاربا صفحا عن ابرامه هدنة عشرين عاما معه قبل ذلك بأربع سنين فقط ، وأرسل جيشا الى البالاتينات . فأرسل ليوبولد شارل وماكس ايمانويل لملاقاة الهجوم على الراين ، وتوقف الزحف على الترك ، وتجدد الهجوم التركى .

واستوزر السلطان الجديد ، سليمان الثانى ، رجلا آخر من أسرة كوبريلى هو مصطفى أخو أحمد . وهدأ مصطفى خواطر المسيحيين فى تركية أوربا بتوسيعه حرية العبادة ، ونظم جيشا جديدا ، واستولى على بلغراد من جديد (١٦٩٠) . ولكنه قتل بعد سنة ، ودحر الأتراك عند سلانكامين . وتولى السلطان مصطفى الثانى قيادة الجيش بشخصه ، ولكن المسيحيين هزموه فى سنتا (١٦٩٧) وكان يقودهم أوجين أمير سافوى . وطلب مصطفى الصلح ، وأبرم ليوبولد معاهدة كارلوفتز (١٦٩٩) مع تركيا وبولنده والبندقية ، مغتبطا لأن يده أطلقت فى محاربة لويس . ونزلت تركيا عن كل دعاواها فى ترانسلفانيا والمجر (فيما عدا « بنات » تيميسفار) ونزلت عن غربى أوكرانيا لبولنده ، وسلمت المورة ودلماشيا الشمالية للبندقية . واحتفظت بالبلقان كله - دلماشيا الجنوبية ، والبوسنة ، والصرب ، وبلغاريا ،

ورومانيا ، ومعظم اليونان ، ولكن المعاهدة عينت نهاية الخطر التركي على العالم المسيحي .

ترى ما الذى هوى بقوة العثمانيين من أوجهها أيام سليمان لقانونى ؟ ليس كالنجاح شيء يتعرض للسقوط . لقد كانت فرص المتعة التى أتى بها النصر والثروة شديدة الاغراء ، فبدد السلاطين فى الحريم ما كانوا فى حاجة اليه من طاقة وهمة لضبط الجيش والموظفين والوزراء . واتسعت دولتهم اتساعا حال دون ادارتها ادارة فعالة ، ودون سرعة توصيل الأوامر ونقل الجنود ، وكان يحكم الولايات باشوات جعلهم بعد الشقة بينهم وبين الآستانة مستقلين تقريبا عن السلاطين . ولم يعد الجوع يحفز الترك ، ولا الأعداء يهددونهم ، فتردوا فى مهاوى الكسل والفساد ، وأفسدت الرشوة الحكم وأشاع غش العملة الفوضي فى الاقتصاد والجيش . وتمرد الانكشارية المرة بعد المرة على رواتبهم المدفوعة بعملة هبطت قيمتها ، واكتشفوا سطوتهم ، فاستغلوها كلما تعاضمت . وظفروا بحق الزواج ، وحصلوا لأبنائهم وغيرهم على الأذن بالانخراط فى سلاحهم الذى كان من قبل وقفا على النخبة المنتقاة ، وتذكروا للتدريب والنظام الصارمين اللذين جعلوا الانكشارية صفوفة المقاتلين فى أوربا . أما قوادهم الذين أصبحوا خبراء فى لذات الجنس ، فقد فشلوا فى ملاحقة العلوم والأسلحة الحربية . وبينما كان الغرب المسيحي يصنع مدافع أفضل ، ويطور استراتيجية وتكتيكاً أرقى ، فى صراع الحياة والموت الذى دار على ساحات حرب الثلاثين ، وجد الأتراك ، الذين كانوا تحت امرة محمد الفاتح يملكون أفضل مدفعية فى العالم - وجدوا أنفسهم - كما حدث فى ليبانتو - متخلفين فى قوة النيران والاستراتيجية . وأرهقت الحرب ، التى قوت من قبل الدولة العثمانية يوم كان السلاطين يقودون جيوشهم بأنفسهم - هذه الحرب أرهقت الدولة حين آثروا انتصارات الحريم السهلة على مشاق المعركة . وكان لسيطرة الايمان القدرى ، غير التقدمى ، على الحياة والفكر أثرها فى خنق العلوم الإسلامية التى كان لها القدر المعلى فى العصور الوسطى ، وازدادت المعرفة فى الغرب وتخلفت فى الشرق . وحسن المسيحيون بناء سفنهم وأصلحوا مدفعيتهم وامتدت تجارتهم الى جميع القارات ، تشق لها طرقاً جديدة فى العباب ، بينما كانت معظم

تجارة العثمانية تزحف فى قوافل على اليا بس . وترك الحكام الكسالى سقايات والقنوات تبلى ، بينما الفلاحون الذين قلبت الحرب حياتهم ينتظرون المطر فى ذل ومسكنة . واتخذ ميسر الامبراطورية طريقه غربا ، الى أن وجد نفسه ثانية فى الشرق يوما وهو لا يزال يتحرك غربا .

وكان رد الأتراك على أعقابهم معناه بالنسبة للغرب الدعوة لحرب داخلية طاحنة . ذلك أن النمسا والمانيا تحولتا بعد تحررها من ضغط سلام عليهما لمواجهة أطماع لويس الرابع عشر ، الذى كان يمد ذراعيه فى الأراضي المنخفضة ، وأراضي الراين ، والبالاتينات ، وإيطاليا ، وأسبانيا . وأكملت هذه اللطمات الآتية من الغرب تفكك لامبراطورية الرومانية المقدسة ، فلم يبق منها غير الصورة . وانتهى لأمر بالامبرادور الى النظر الى نفسه على أنه نمساوى لا رومانى ، وحلت الاميراطورية النمساوية - المجرية محل الرومانية المقدسة . وجعلت العروش الثلاثة - عروش النمسا ، والمجر ، ويوهيميا - وراثية فى أسرة هابسبورج (١٧١٣) ، فألغيت حقوق الولايات البوهيمية والمجرية التقليدية فى انتخاب ملوكهم . وعادت المجر الى الثورة (١٧٠٣ - ١١) بزعامة فرانسيس راكوكزى الثانى ، ولكن الثورة أخمدت ، تاركة الحنين الى الحرية يتردد صداه فى الشعر والأغانى .

وسخرت النمسا اقتصاديات المجر ويوهيميا لمنفعتها الخاصة ، وتمتعت طبقاتها العليا بثراء جديد . وارتفعت القصور الفاخرة للاستقراطية ، وأسكنت الكنائس الجميلة والأديار الضخمة القساوسة والرهبان المنتصرين . وأعاد الأمير بال استرهازى بناء قلعته الكبرى فى ايزتشتات ، حيث سيقود هايدن يوما فرقته الموسيقية ويؤلف لحنه . وفى فيينا صمم دومنيكو مارتينللى قصر ليشتنشتين ، وقصر بلفدير لأوجين أمير سافوى . وبنى يوهان فيشر فون ايرلاخ لهذا الأمير ذاته قصرا شتويا فاخرا ، ووضع الخطط للمكتبة الملكية ، والقصر الامبراطورى فى شونبرون . وفى ١٧١٥ بدأ أعظم معماريى النمسا هذا

عمله فى كنيسة كارلسكرشي بفيينا ، بطراز كنيسة القديس بطرس بروما .
وعلى ضفاف الدانوب على نحو أربعين ميلا غربى فيينا شاد يعقوب
برانتاور دير «كلوسترميلك» اكبر الأديار البندكتية وأروعها فى الأراضى
الألمانية ، وهذا أوج الباروك النمساوى . وفى أعقاب الانتصار صمم يوهان
ارنست تون ، رئيس الأساقفة الكفاء الوجيه ، حديقة ميرابيل الشهيرة
بسالزبورج ، وجملها بمنحوتات من صنع فيشرفون ارلاخ . وهى كذا
محركت النمسا فى كبرياء وأبهة الى أعظم قرن فى تاريخها .